تمثلات الآخر الاجتماعي في رسالة ابن فضلان

العادات والتقاليد أنموذجاً

الاستاذ الدكتور أحمد حياوي السعد

المدرس المساعد منى حسن علي

جامعة البصرة /كلية الآداب

الملخص:-

تعد رحلة ابن فضلان من أشهر كتب الرِّحلات العربيَّة التي دُوِّنت في بدايات القرن الرابع الهجري ؛ لأنها تحدَّثت عن واقع عاشه كاتبه عن كثب، وكتب من خلاله عن أقوام ، وحواضر ، وطرق عيش متباينة ، وعلاقات اجتماعية مختلفة ، وأساليب حكم متخلِّفة . وفي هذا البحث سنحاول أنْ نتحدَّث عن بعض العادات والتقاليد في الزواج ، والموت ، والمأكل والمشرب، والألبسة ، فضلاً عن بهرج السلطان ومراسمه ، لشعوب وقبائل لم يكن العرب يعرفون عنها شيئاً ، بل لم يكن العالم يعرف عنها شيئاً . الله نسأل أنْ يوفقنا في هذا الجهد ، وأنْ يتلقاه القرَّاء بعين القبول، وأنْ يغفروا لنا ما فيه من قصور

The Representation of the Social 'Other' in Ibn Fadhlan Travel Writing: Traditions and Conventions

Prof.Dr. Ahmed Hayawi Alsaad

Asst. Lecturer. Mona Hassan Ali

University in Basrah / College of Arts

Abstract:

Ibn Fadlan's treatise is regarded as one of the most famous Arab travel books which is written in the beginning of the fourth century AH, because it dealt with the reaslity of the author's life, including people, cities, different ways of living, different social relations and methods of government. In this paper we will try to address some customs and traditions in marriage, death, food, drink and clothing, as well as the majesty of the Sultan and his ceremonies, of people and tribes that the Arabs and the world knew nothing about. We ask God to help us in this effort, and that the readers receive it with the acceptance, and forgive us the shortcomings and God behind the intent.

المقدمة

في الرَّحالة والرِّحلة :

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمَّاد . كاتب عربي مسلم . فُقِدَ الكثير من سجلِّه ، وما كان معروفاً عنه أنَّه عاش في مطلع القرن الرابع الهجري . أمَّا عن محل ولادته ونسبته فلا توجد معلومات في هذا المجال .

ويتردد اسم ابن فضلان عندما يصل ، إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله ، رسالة من ملك الصقالبة يطلب فيها منه بعثة دينيَّة تفقههُ في الدين ، ومساعدة ماليَّة لبناء مسجد، وحصن يتحصَّن فيه من اعتداءات وظلم ملك دولة الخزر اليهوديَّة . وقد وقع اختيار الخليفة على أحمد بن فضلان ليكون على رأس هذه البعثة . وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنَّما يبرهن على أنَّ ابن فضلان كان مُقرَّباً من الخليفة ، موثوقاً عنده ، في علمه ومقدرته وكفاءته . إذْ ليس من اليسير أنْ يختار الخليفة رجلاً لا يكون محنَّكاً أو مجرَّباً .

وقد استغرقت الرِّحلة أحد عشر شهراً في الذهاب ، وكانت مليئة بالمغامرات والمشاق ، والمصاعب السياسيَّة ، والانفتاح على الآخر المختلف ثقافيّاً . ورغم مرور ما يزيد عن ألف سنة على رحلة ابن فضلان ما زال صاحبها محط إعجاب الباحثين والمهتمين على مر العصور ؛ وذلك بعد أنْ تخطَّى ـ هو ـ حدود القوميَّة إلى أفق الإنسانيَّة الرَّحب ، فحفظ لشعوب عِدَّة ذخيرة فريدة من ماضٍ ما كان له حضور بينهم ، لولا تلك السطور الخالدة التي دوَّنها في بغداد ، بعد عودته من رحلته تلك ، محمَّلاً بكنز من حقائق عاشها فخلَّدته على امتداد الزمان .

العادات والتقاليد :

يهيمن الآخر الاجتماعي على أغلب النصوص الرَّحليَّة ؛ لاهتمام الرَّحالة بمعرفة العادات الاجتماعية للشعوب تلك التي تكشف عن طبيعة الآخر في مجتمعه ؛ كونها تمثل أسلوباً اجتماعياً تُمارس في المجتمعات على اختلافها وتنتقل من جيل إلى جيل على شكل

أعراف وتقاليد تختلف وتتنوع باختلاف الشعوب وتحرص عليها الأفراد والجماعات لتصل في بعض الأحيان إلى درجة التقديس .

لذا حرص ابن فضلان في رحلته على رصد أوجه متعددة للأخر ؛ ليقدم لنا وصفاً إثنوغرافياً دقيقاً لعادات وطبائع وتقاليد القبائل والشعوب ومعتقداتهم ، التي تكونت عبر الزمن . كما يرصد الأحكام والأعراف والنظم الاجتماعية المتمثلة بالعلاقات العامة بين أفراد المجتمع في مختلف الجوانب الحياتية لسكان البلدان التي زارها واختلاف كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم وطعامهم وشرابهم ، فوقف عند العديد من مظاهر الحياة الاجتماعية ، فاهتم بطقوس الموت ومراسيم الدفن والزواج ، كما أشار إلى عادات المأكل والملبس . ووقف عند الآخر المغاير في الجنس (المرأة) ووضعُها في هذه المجتمعات ، ممَّا يفيد في دراسة تلك الشعوب اجتماعياً وحضارياً .

إنَّ نظرة ابن فضلان للآخر جاءت من منظار ثقافته العربية والإسلامية عبر مقارنة عادات ومعتقدات المجتمعات التي زارها بالعادات العربية ومعتقدات الشريعة الاسلامية . فهو يقارن اختلاف الثقافة والبيئة وكل ما يقع في دائرة المنظومة القيمية للآخر عبر رصده جملة من الممارسات السلوكية ، أو عبر العقائد والمفاهيم في سياق ثقافي متعدد انطلاقاً من ثقافته المتفوقة على الآخرين ومركزيته العربية الإسلامية ، إذْ (إنَّ أوج التاريخ العربي والحضارة العربية هو مطلع القرن الرابع الهجري ـ العاشر للميلاد ـ حيث شاركت كل الأجناس وكل العواصم في ازدهار ثقافة غزيرة متنوعة ، أدبية علمية فلسفية ، كلها مكتوبة باللغة العربية)[١].

ومن هنا كان ابن فضلان رائداً في وصفه الدقيق للشعوب والمجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية ، فكأنَّه كان يحمل عدسة يصور بها كل ما يلفت نظره . وكان ـ لذلك ـ أشبه بعلماء الأنثروبولوجيا الذين يدرسون المجتمعات والقبائل ممَّا جعل ملاحظاته أقرب إلى عالم أنثروبولوجي منه إلى سفير يكتب تقريره ، وهذا ما يتبيَّن عند حديثه عن الشعوب والسلالات العرقية ، والقبائل وسلوكها الاجتماعي ، فيصف حكَّامهم ونساءَهم ، ورسومَ زواجهم ، وأمر اللواط عندهم ، وتقاليد المرض وتقاليد الموت ، وكل الأمور التي أثارت

حفيظته أثناء رحلته سواء الأمور المألوفة لنسقه الثقافي أم غير المألوفة والبعيدة عن نسقه . فقد (صوَّر الرحلة والعادات والتقاليد والحياة والأخلاق في ذلك العصر في مختلف المناطق التي مرَّ بها أو أقام فيها ، وكان دقيق الملاحظة ، يسجل أكثر ممَّا يرى السائح ، وينقل إليه ما يدور خلال السياحة من حوار ودسائس ، ويصف الحكام والأمراء ورجال الشعب على حد سواء ويرسم الهيئات والوجوه على ايجاز الرسالة وقصرها)[٢].

ويتمظهر الآخر الاجتماعي في الرحلة عبر أنماط من العادات والتقاليد التي ترسَّخت إلى حد أنَّها وصلت إلى مستوى القانون الاجتماعي . فيشير إلى الآخر بصفته الشخصية أو بعلاقته بالمجتمع والبيئة التي تحيط به في جملة من الممارسات منها :

أ- <u>رسوم الزَّواج :</u>

اهتمَّ ابن فضلان بالزواج ورسومه . ومفردة الرسم في لسان العرب (هو الأثر ، وقيل بقية الأثر ، وقيل ما لصق بالأرض من الآثار . ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض)[٣] . أما مفردة الرسم التي يستخدمها ابن فضلان في مواضع عدة [٤] فتشير إلى الأفعال المتكررة ، لدى المجتمعات ، التي تصبح جزءاً من العادات الراسخة لديهم ، وتسهم في رصده للعلاقات الاجتماعية والسلوكيات التي تساعد في تكوين صورة عن الآخر.

وظاهرة الزواج تستمد خصائصها من عادات وتقاليد المجتمع ، وتعد رسومها من الأنماط الثقافية التي تختلف باختلاف الثقافات ، فيدوِّن ابن فضلان عادات الزواج غير المألوفة عند الآخر ؛ بسبب مخالفتها عمّا اعتاده وعرفه في ثقافته ، تلك التي تتميز بخصوصية تعود محمولاتها إلى الدين الإسلامي ، فيندهش من هذه المشاهد والعادات ؛ بسبب مفارقتها للمألوف لديه ، الذي يعدّه هو الطبيعة ، ويطالب الآخر أنْ يكون طبيعياً مثله[٥]

كما أنَّه لم يغفل تلك العادات المألوفة لديه ؛ لتشابهها مع نسقه ، فيذكر رسوم الزواج عند الغزية ، وهم قوم من الترك ، وما يقدم للنساء من مهور (وهو أنْ يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعضَ حرمه ، إمّا ابنته أو أُخته أو بعض مَنْ يملك أمرَهُ ، على كذا وكذا ثوب خُوارزمي ، فإذا وافقه حملها إليه ، وربَّما كان المهر جمالاً أو دوابَّ أو غير ذلك ، وليس يصل الواحد إلى امرأته حتى يُوفي الصِّداق الذي قد واقف ولمَّها عليه)[٦].

ونجد أنَّ هذه المراسيم تتطابق مع ذخيرة ابن فضلان ، إذْ يعد الصِّداق والمهر من أساسيات الثقافة العربية الإسلامية ، وهو ما يُعطى للمرأة من حلي أو أموال لا تحدد قيمتها . ويعد من لوازم الزواج ، إذْ أنَّه من التشريعات الواجبة التي أكَّد عليها الدين الإسلامي لقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[٧] . وكذلك لما يمثله من قيمة رمزية للمرأة عند أهلها ووسطها الاجتماعي .

كما لا يتم الزواج عند الغزية إلاّ بحضور أهل الزوجة (فإذا وفَّاه إيَّاه ـ الصِّداق ـ جاء غير مُحتشمٍ حتى يدخلَ إلى المنزل الذي هي فيه ، فيأخذها بحضرة أبيها وأُمها وإخوتها فلا يمنعونه من ذلك)[٨]. وحضور أهل الزوجة ليس واجباً مدنياً فحسب بل هو واجب ديني أيضاً ، إذْ يُوجب أنْ يكون الزواج بحضور الولي سواء أبو الزوجة ، أو الوصي ، أو الأقرب من أهلها . وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾[٩] .

ويذكر ابن فضلان الطريقة التي تُستكمل بها مراسيم الزواج ودخول الزوج إلى بيت زوجته بحضرة أهلها بصورة غير محتشمة وذلك عبر سوقه عبارة (غير محتشم) ، إلاَّ أنَّه لم يوضِّح ما يُقصد بها . وربَّما تتطابق العبارة دلالياً مع مفردة الأخذ (فيأخذها) التي قد يقصد بها (الدخول الشرعي بالزوجة) بحضرة أهلها الأمر الذي ينافي الطبيعة التي ألفها ابن فضلان في بلاده ، وهي احترام الزوجة وأهلها. كما أنَّ العلاقة الزوجية ـ في نسقه الثقافي ـ مقدَّسة ولها خصوصيتها.

كما يوثق ابن فضلان رسوم الزواج عند الترك ، ومنها انتقال المرأة بعد وفاة زوجها إلى الابن الأكبر إذا لم تكن أمه فـ (إذا مات الرجلُ وله زوجة وأولاد تزوَّج الأكبرُ مِنْ ولده بامرأتِهِ إذا لم تكنْ أُمَّهُ)[١٠].

ولا يثير ابن فضلان اهتماماً لهذه الظاهرة ولا يُبدي له رأياً ؛ كون هذه العادة شبيهة بعادات الجاهلية التي مازالت متعلِّقة بنسقه الثقافي العام ، وهي ما تسمى بزواج المقت* (وفيه أنَّ المرأة حين يموت زوجها ، كان أكبر أبنائِهِ يعد نفسه أولى بزوجه ، فيُلقي ثوبه عليها ، فيتملك حرية زواجها شرط أنْ لا يكون من أبنائها وإنَّما من زوجات أُخر)[١١]. ومع ذلك يدونها في رسالته باعتبارها من السلوكيات التي لا تنتمي إلى الدين الإسلامي

ومنظومته القيميَّة والأخلاقية ، وهو في الوقت ذاته يراعي النسق الثقافي عند كل مجتمع ويقر بخصوصية الآخر واختلافه ، فكما أنَّ الثقافة العربية الإسلامية لها خصوصية تجعلها تتمايز عن غيرها من الثقافات الإنسانية ، فكذلك يرى المجتمعات الأخرى .

ومن رسوم الترك ـ أيضاً ـ أنْ لا تتزوج المرأة إلاَّ بعد مرور سنتين على وفاة زوجها إذا كان من الرؤساء أو الزعماء ، فيقول : (فإذا انقضت السنتان حطُّوا المِطرد ، وأخذوا من شعورهم ، ودعا أقرباءُ الميت دعوةً يعرف بها خروجهم من الحزن ، وإن كانت له زوجة تزوَّجتْ . هذا إذا كان من الرؤساء . فأمَّا العامة فيفعلون بعض هذا بموتاهم)[١٢] .

وهذا الأمر ، كما هو واضح ، يخالف نسق ابن فضلان الديني ، لكنَّه لم يذكر بأنَّه حاول أنْ يُغيِّر من تلك العادة ، كما فعل في موضع آخر ، باعتباره ـ أيضاً ـ فقيهاً مهمته أنْ يُعلِّم أقوام الترك شرائع الدين وفقاً لمرجعيته الدينية التي تقضي بأنْ تكون عِدَّة المرأة بعد وفاة زوجها ستة أشهر.

وعلى هذا النحو يتجلَّى لنا نسق من الحياة الاجتماعية في إحدى مظاهرها ، وهو الزواج الذي وقف عنده ابن فضلان ضمن سعيه لاكتشاف الآخر المختلف في مرجعيته الحضارية ومنظومة قيمه ومظاهر ثقافته ، إذْ إنَّ المعطيات التي ساقها ابن فضلان تساعد في رسم صورة الآخر وبالتالي فهمه ؛ (لأنَّ الفهم التام للآخر لا يتحقق إلاَّ بالانغماس فيه ، عبر التجربة الواسعة)[١٣] التي تمكنه من تسليط الضوء على ملمح من ملامح الحياة الاجتماعية للآخر البعيد جغرافياً .

ب- <u>طقوس الدفن :</u>

تعد الطقوس الجنائزية واحدة من مظاهر الثقافة الإنسانية عند الكثير من الشعوب ، رغم اختلافها من بلد لآخر ، وترتبط هذه الطقوس بالجو الثقافي السائد للمجتمعات فيما يتعلق بوعيها بالموت وكيفية تعاملها معه ؛ باعتباره حقيقة أو واقعاً حتمياً ، بدءاً من اظهار الاحترام للميت ، وما يرافقه من مراسيم جنائزية وطريقة دفن ، وما يتبع هذه المراسيم من بكاء وحزن . وجميع هذه المعطيات والتمثلات تسهم في التعرف على البنيات الاجتماعية للشعوب على اختلاف طبائعها ، لذلك وقف ابن فضلان طويلاً في وصفه

العادات والمراسيم المتبعة عند الروس في دفن موتاهم ، فهي من الغرابة ما جعله يحرص على تدوينها في صفحات مطولة ؛ ولكونها أيضاً تخالف ما اعتاد عليه من طريقة الدفن في عالمه الإسلامي .

بدأ ابن فضلان وبشكل تراتبي بذكر عادات ما قبل الموت عند الروس وما بعده والمتمثلة بطريقة التعامل مع المريض الذي يحتضر ، وكيف أنَّهم يتركونه وحيداً إلى أنْ يموت دون دفن ممَّا يؤشر خللاً في المنظومة القيميَّة والأخلاقية عند الآخر ، ومغايرة للثقافة الإسلامية التي تُولي اهتماماً بالغاً بعيادة المريض والاهتمام به وخصوصاً المحتضر ، وكذلك طريقة الدفن . فينقل ابن فضلان : (إذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم ، وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ولا يقربونه ولا يكلِّمونه في كلِّ أيام مرضه لاسيما إنْ كان ضعيفاً أو مملوكاً . فإنْ برىء وقام رجع إليهم ، وإنْ مات أحرقوهُ فإنْ كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارحُ الطير)[١٤] .

وتنطوي النار على الكثير من الأبعاد الرُّوحية ، إذ انَّ ظهورها في المعتقدات والمراسيم المتعلقة بـ (دفن الآخر) ، ترتبط بوجود المقدس عبر تحريك النوازع الدينية الأولى للإنسان ؛ باعتبارها المقدس الأول التي من خلالها انفتحت أحاسيسه ومشاعره باتجاه تشكل ديني أعلى[١٥] . إذْ تعد الوسيلة الناقلة لموتاهم إلى الجنة دون تأخير ، فينقل ابن فضلان عن رجل من الروسيَّة قوله : (نحنُ نحرقهُ بالنار في لحظة ، فيدخل الجنة من وقتِهِ وساعتِهِ)[١٦] .

وقد سمع ابن فضلان أنَّ الروس يحرقون ملوكهم عند موتهم أيضاً (وكان يُقال لي إنَّهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أُموراً أقلَّها الحرق)[١٧] . وهنا يذكر ابن فضلان حدثاً لم يعشه أو يشاهده ـ (يقال لي) ـ لكنَّه يمنح الحادثة التي ينقلها ـ فيما بعد ـ مصداقية وموثوقية ، فقد حرص على أنْ ينتقل من فعل السماع إلى فعل الرؤيا ؛ للإقناع بصدقية الخبر ، ولذا كان قراره أنْ يشهد وقائع دفن أحد الموتى من الرجال الأجلاَّء ، حين قال : (فكنت أحبُّ أنْ أقفَ على ذلك)[١٨] .

ثم يصف لنا مشاهد عيانيَّة بتفاصيل في غاية الدقة ، إذْ يقول : (حتى بلغني موتُ رجلٍ منهم جليل ، فجعلوهُ في قبره ، وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابِهِ وخياطتِها ؛ وذلك أنَّ الرجلَ الفقيرَ منهم يعملون له سفينة صغيرة ، ويجعلونه فيها ويحرقونها . والغني يجمعون مالَهُ ، ويجعلونَهُ ثلاثة أثلاث ، فثلث لِأَهلِهِ ، وثلث يقطعون له به ثياباً ، وثلث ينبذون به نبيذاً يشربونه يوم تَقتل جاريتُهُ نفسَها وتُحْرق مع مولاها)[١٩]

ويتابع ابن فضلان وصف هذه الرسوم التي من ضمنها أنْ تُحرق مع الميت أُضحية بشريَّة تمثلت في جارية تقتل مع مولاها بمشاركة امرأة عجوز تسمى عندهم ملك الموت ، وهي التي تتولى قتل الجارية التي وافقت على الموت مع سيِّدها (فلمَّا مات ذلك الرجل الذي قدَّمتُ ذِكره قالو لجواريه : (مَنْ يموت معه) ؟ ، فقالت إحداهُنَّ : (أنا) ، فوكَّلوا بها جاريتينِ تحفظانها وتكونان معها حيثُ سلكت .. والجارية في كلِّ يومٍ تشرب وتغني فرحةً مستبشرة . فلمَّا كان اليوم الذي يُحرق فيه هو والجارية حضرت إلى النهر الذي فيه سفينته ، فإذا هي قد أُخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك وغيره ، وجعل أيضاً حولها مثل الأنابير الكبار من الخشب ، ثم مُدَّت حتى جُعلت على ذلك الخشب . وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم ، وهو بَعْدُ في قبره لم يخرجوه . ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشُّوه بالمضربات الديباج الرُّومي والمساند الديباج الرُّومي ، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ، ففرشت على السرير الفرش ، التي ذكرنا. وهي وليت خياطته وإصلاحه . وهي تقتل الجواري ، ورأيتها جوان بيرة ، ضخمة، مكفهرة)[٢٠].

ويتحدث ابن فضلان عن الطريقة التي دُفن بها هذا الميت ـ الجليل ـ وكيفية إخراجه من القبر واللباس الذي يُوضع عليه استعداداً لحرقه مع ذبح قرابين ، فديات حيوانية (كلب ، ودابتين ، وبقرتين ، وديكاً ودجاجة) ، يوضع لحمها في السفينة إلى جانب نبيذ وفاكهة وريحان وخبز ولحم وبصل ، فضلا عن سلاحه : (فلما وافو قبره نحَّوا الترابَ عن الخشب ونحَّوا الخشبَ ، واستخرجوه في الإزار الذي مات ، فرأيتُهُ قد اسودَّ لبرد البلد ، وقد كانوا قد جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهةً وطنبوراً ، فأخرجوا جميع ذلك ، فإذا هو

لم ينتن ولم يتغيَّر منه شيء غير لونه . فألبسوه سراويل وراناً وخفّاً وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب ، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمُّورية . وحملوه حتى أدخلوه القُبَّة التي على السفينة . وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه . وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه ، وجاءوا بكلب فقطَّعوه نصفين ، وألقوه في السفينة . ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه ، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ، ثم قطَّعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة . ثم جاءوا ببقرتين فقطَّعوهما أيضاً وألقوهما فيها . ثم أحضروا ديكاً ودجاجةً فقتلوهما ، وطرحوهما فيها)[٢١].

إنَّ الطقوس التي دوَّنها ابن فضلان على الرغم من غرابتها ومخالفتها لنسقه غير إنَّ لها مرجعيات تاريخية قديمة ، فالإنسان القديم كان يُداوم على ممارسة مثل هذه الطقوس عند الدفن . فمن يرجع إلى شعوب ما قبل الأديان ، يرى أنَّ الإنسان قد دفن معه مقدسه ؛ لكي يحميه بعد الموت .. كما أنَّ المدفونات الأخرى مع الإنسان (الحيوان ، الفأس) تشير إلى اعتقاد الإنسان باستمرار الحياة بعد الموت وضمان مكانته وحمايته بوجود هذه المقدسات التي اكتشفها بنفسه في الحياة[٢٢] . لذلك لم نجد رأياً أو تعليقاً عند ابن فضلان واكتفى بذكر ما شاهده بشكل تفصيلي .

ومن العادات التي رافقت مراسيم الحرق قيام بعض المعزِّين ـ من أصحاب الميت ـ بمضاجعة الجارية ، وهي مخمورة ؛ كدليل على حبِّهم له (والجارية التي تُريد أنْ تُقتل ذاهبة وجائية تدخل قُبَّةً قُبَّةً من قبابهم ، فيجامعها صاحب القبة ، ويقول لها : قولي لمولاك إنَّما فعلتُ هذا من محبَّتِك ... ثم أصعدوها إلى السفينة ... فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبَّة ـ التي فيها مولاها ـ ودخلت معها. وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس ؛ لئلا يُسمعَ صوتُ صياحِها فيجزع غيرها من الجواري ، ولا يطلبنَ الموتَ مع مواليهنَّ . ثم دخل إلى القبَّة ستةُ رجالٍ فجامعوا بأسرهم الجارية ، ثم أضجعوها إلى جانب مولاها ، وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها. وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل ،

فأقبلت تُدخله بين أضلاعِها موضعاً موضعاً وتُخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت . ثمَّ وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبةً وأشعلها بالنار.. حتى أحرق الخشب المعبَّأ الذي تحت السفينة ، من بعدما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها . ثمَّ وافى الناس بالخشب والحطب ، ومع كلِّ واحدٍ خشبة ألهبَ رأسها ، فيلقيها في ذلك الخشب ، فتأخذ النار في الحطب ، ثمَّ في السفينة ، ثمَّ في القبَّة ، والرجل والجارية وجميع ما فيها)[٢٣].

إنَّ هذه العادات حتى وإنْ لاقت استنكاراً ؛ لما لها من الغرابة وكونها ـ أيضاً ـ تدخل ضمن نطاق اللاَّ مألوف بالنسبة للرَّحالة ، إلاَّ أنَّها في الوقت ذاته تدخل في خصوصيات الآخر ، وتكتسب مشروعيتها عنده بسبب (الامتثال الجماعي والقبول والمرافقة الجماعية التي قد تصل في بعض الأحيان إلى الطاعة المطلقة فتتوقف العادات على ظروف المجتمع. فهي تختلف بحسب المجتمعات وبحسب الأزمنة المطلقة)[٢٤] . لذا كان ابن فضلان واعياً لهذا الأمر ، ولذلك نراه قد اكتفى برصد هذه الطقوس الغريبة رصداً تسجيلياً دون التعليق عليها .

ثم ينتقل بنا ابن فضلان إلى أقوام آخرين وهم الترك ـ الغزيَّة ـ فيصف لنا طقوس الدفن لديهم التي وجدها ، بطريقة ما ، تشابه تلك العادات التي شاهدها عند الروس فيما يتعلق بلباس الميت ، والأضاحي الحيوانية التي تُقدَّم له ، فإذا مات الرجل منهم يحفرون له حفيرةً كبيرةً على هيئة بيت ويسقفونه عليه ، ويضعون معه كل ما يملك من أموال بعد أنْ يلبسونه ثيابه ويضعون في يده قدحاً من نبيذ ، ثم يقتلون مئة إلى مئتين من دوابِّه وعلى قدر ما يملك ويأكلون لحومها إلاَّ الرأسَ والقوائمَ والجلدَ والذَّنَبَ ، فإنَّهم يصلبون ذلك على الخشب ، ويقولون : (هذه دوابُّهُ يركبها إلى الجنَّة)[٢٥].

ولم يفت ابن فضلان أنْ يذكر ما يميِّز الميت ، إذا كان شجاعاً ، بتعجُّب ، فيقول : (فإنْ كان قد قتل إنساناً وكان شجاعاً نحتوا صوراً من خشب على عدد مَنْ قَتَلَ ، وجعلوها على قبره وقالوا : هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنَّة !)[٢٦].

وتبدو السلطة حاضرة ، هنا ، في أحد مظاهرها عند الخزر فـ (رسم الملك الأكبر إذا مات أنْ يُبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً ويحفر له في كلِّ بيت منها قبر ، وتُكسَّر الحجارة حتى تصير مثل الكحل ؛ وتفرش فيه ، وتطرح النورة فوق ذلك . وتحت الدار نهر والنَّهر نهرٌ كبير يجري ، ويجعلونَ القبر فوق ذلك النَّهر ويقولون : (حتى لا يصل إليه شيطانٌ ولا إنسانٌ ولا دودٌ ولا هوام) . وإذا دُفن ضُرِبَتْ أعناقُ الذين يدفنونه حتى لا يُدرى أين قبره من تلك البيوت . ويُسمَّى قبره الجنَّة . ويقولون : (قد دخل الجنَّة) ، وتُفرشُ البيوتُ كلُّها بالديباج المنسوج بالذَّهب)[٢٧].

ويُرجع الأنثروبولوجيون تكرار تقديم القرابين البشرية في كلِّ طقس جنائزي إلى خوف الشعوب من المجاعة . وهذا يعني أنَّ الدافع الاقتصادي ربَّما كان واحداً من أسباب ظهور هذا الطقس ، إذْ أنَّ خوف الإنسان من المجاعات ، وخشيته من عدم توفر الغذاء جعله يضحي بأبنائه بصورة طقسية دينية [٢٨]. وهنا أيضاً لم يستغرب ابن فضلان ، ولم يعلق على ذلك ، كما فعل في مواضع أُخرى ؛ لأنَّه (إذا كان تقديم القرابين البشرية يستحق الإدانة فإنَّه لا يترتب على ذلك أنَّه يجب إعلان الحرب على مَنْ يمارسه . وطالما أنَّ القانون يُجيز ذلك فإنَّ المرءَ الذي يمارسه إنَّما يتصرف كمواطن صالح ولا يمكن لومه على ذلك . أي أنَّ تقديم القرابين مقبولاً لاعتبارات قانونية)[٢٩] . وربَّما لهذا السبب اكتفى ابن فضلان بتقديم صورة من الواقع الذي عايشه . وربَّما ـ أيضاً ـ أرادنا أنْ نحكم بأنفسنا على الآخر من خلال مشاهدات حيَّة دوَّنها بنفسه.

أما الصقالبة فتتشابه بعض طقوس الدفن لديهم مع المسلمين ، ومنها (إذا مات المسلمُ عندهم أو زوجُ المرأة الخوارزمية غسَّلوه غسلَ المسلمين ، ثم حملوهُ على عجلةٍ تجره ، وبين يديه مِطرد حتى يصيروا به إلى المكان الذي يدفنونه فيه ، فإذا صار إليه أخذوه عن العَجَلة وجعلوه على الأرض ، ثمَّ خطُّوا حوله خطّاً ، ونحَّوْه ، ثم حفروا داخلَ ذلك الخط قبره ، وجعلوا له لحداً ، ودفنوه . وكذلك يفعلون بموتاهم)[٣٠].

ومن العادات التي وقف عندها ابن فضلان والتي ترقى لِأَنْ تكون طقساً ما وجده لدى الصقالبة ـ أيضاً ـ من بكاء الرجال على الميت دون النساء (ولا تبكي النساء على الميت ،

بل الرجال منهم يبكون عليه ، يجيئون في اليوم الذي مات فيه ، فيقفون على باب قبَّته فيضجون بأقبح بكاء يكون وأوحشه ... ولا يقطعون البكاء سنتين)[٣١] .

وغني عن البيان أنَّ البكاء والنواح على الميت ، وكذلك شق الجيوب ولطم الخدود عليه ليس بغريب عن ثقافة ابن فضلان ، لِمَا يخلِّفُهُ الموت من غياب لشخص عزيز عن أهلِهِ أو قومِهِ ، لكنَّ الغريب هو قيام الرجال بهذا الفعل ، ولذلك وصفه بصيغة التفضيل (أقبح ، أوحش) دلالة على عظمة هذا الفعل ، وغرابته ؛ لأنه عادة ما تقوم به النساء دون الرجال في مجتمعه .

ت- <u>المأكل والمشرب :</u>

تعد آداب المائدة ، وما يُقدَّم فيها من الأطعمة والأشربة ، من العادات والسلوكيات اليومية المتكررة التي تطبع صورة الآخر وتعكس ثقافته . ومن خلالها يمكن التعرُّف على بنية المجتمع والقواعد التي تحكمه ، فضلاً عن نوعية العلاقات التي تسود بين أفراده ، إذْ تتعدى أهمية ونوعية الطعام الناحية الفسيولوجية إلى الثقافية .

ويرتبط الطعام ، بشكل أو بآخر ، بآداب الضيافة ؛ بوصفه سلوكاً محموداً يرتبط بالكرم والأخلاق والقيم ، والآخر الذي يخالف تلك القيم هو محط استهجان . لذا لم يفت ابن فضلان ذكر تقاليد الضيافة وما يُقدَّم للضيف من مأكل ومشرب ، فضلاً عن طريقة تناول الأكل ، وآداب المائدة . فالضيف لدى الصقالبة ـ مثلاً ـ ليس مثل العربي أو المسلم الذي تحكمه تقاليد الإسلام ، والأعراف الاجتماعية . فالصقلبي لا ينتظر الإذن لدخول بيت المضيف وإنَّما يدخل دون استئذان فـ (لا يقفَ السائلُ على الباب ، بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعةً عند نارِهِ يَصطَلي ، ثم يقول : ((بكند)) يعني الخبز)[٣٢] .

ويُورد ابن فضلان عادات الطعام وآدابه عند موائد الملوك وذلك حين دعاه ملك الصقالبة إلى مائدة أعدَّها له ، فيقول : (فابتدأ هو ـ الملك ـ فأَخذَ سكِّيناً وقطعَ لقمةً فأكلها ، وثانيةً ، وثالثةً ، ثم احتزَّ قطعةً دفعها إلى ((سوسن)) الرسول . فلمَّا تناولها جاءته مائدةٌ صغيرةٌ فَجُعِلتْ بين يديه ، وكذلك الرسم ، لا يمد أحدٌ يدَهُ إلى الأكل حتى يناوله الملكُ لقمةً ... ثمَّ ناولني فجاءَتني مائدةٌ ثمَّ قطعَ قطعةً وناولها الملكُ الذي عن

يمينه فجاءَته مائدةٌ . ثمَّ ناول الملكُ الثاني فجاءَته مائدةٌ . ثمَّ ناول الملكُ الرابع فجاءَته مائدةٌ . ثمَّ ناول أولاده فجاءَتهم الموائدُ . وأكلنا كل واحد من مائدتِهِ لا يشركه فيها أحدٌ ، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً ، فإذا فرغ من الطعام ، حمل كلُّ واحدٍ منهم ما بقي على مائدته إلى منزلِهِ)[٣٣] .

وهذا الأمر غريب عن ثقافته ابن فضلان في تناول الطعام وتقديمه ، إذْ غالباً ما يجتمع عدة أشخاص ويأكلون من قصعةٍ واحدةٍ أو يتشارك الجميع في ما يُقدَّم على المائدة ، فالضيف ، في الغالب ، هو سبب وجود الموائد ، وهو من يبدأ أولاً بِمدِّ يده إلى الطعام وتناوله إكراماً له .

ثم ينتقل ابن فضلان من آداب الموائد إلى وصف الأطعمة والأشربة المحبَّبَة لدى الصقالبة ، وطريقة حفظها ، فيقول : (وأكثرُ أكلهم الجاورسُ ولحمُ الدَّابةِ)[٣٤] .

والجاورس هو نوع من الحبوب على ثلاثة أصناف ، أجودها الأصفر يُؤكل مثل الدهن يشبه الرز . كما يصف التفاح بأنَّه (شديدُ الخُضْرة ، وأشدُّ حُموضةً من خلِّ الخمر ، تأكلهُ الجواري فيسمَنَّ عليه)[٣٥] . وفي وصف غاية بالدقة والروعة والجمال يصف ابن فضلان شجرة الرُّمَّان وثمارها فيقول : (فرأينا عوداً صغيراً أخضرَ كرقَّة المِغْزل وأَطول، فيه عرقٌ أخضر ، على رأسِ العرقِ ورقةٌ عريضة مبسوطةٌ على الأرضِ ، مفروشٌ عليها مثل النَّابت ، فيها حبٌّ لا يَشكُّ مَنْ يأْكلُهُ أنَّه رُمَّان أمليسي ، فأكلنا منه فإذا به من اللَّذة أمرٌ عظيمٌ ، فما زلنا نتبعُهُ ونأْكلُهُ)[٣٦] .

ويُبدي ابن فضلان استهجانه من طريقة حفظ الصقالبة للأطعمة حتى تصبح عديمة الفائدة ، فيقول : (وليس لهم مواضعُ يجمعونَ فيها طعامَهُم ، ولكنَّهم يحفرون في الأرض آباراً ، ويجعلونَ الطعامَ فيها ، فليس يمضي عليه إلاَّ أيام يسيرة حتى يتغيَّر ويريح فلا يُنتَفعُ به)[٣٧] ويشير ، أيضاً ، إلى أنَّ طعامهم كان زفراً ؛ بسبب استعمالهم زيت السمك ، فـ (ليس لهم زيتٌ ، ولا شيرج* ، ولا دهن بتة وإنَّما يُقيمون مقام هذه الأدهان دهنَ السَّمك ، فكل شيء يستعملونَهُ فيه يكون زفراً)[٣٨] .

ويلاحظ ابن فضلان التمايز بين الجواري والموالي في نوعية الطعام الذي يأكلونه ، فالجواري والغلمان يأكلون الشعير ، بينما الموالي يأكلون اللَّحم (ويعملونَ من الشَّعير حساءً يُحْسونه الجواري والغلمان . وربَّما طبخوا الشَّعير باللَّحم ، فأكل الموالي اللَّحم وأَطعموا الجواري الشَّعير)[٣٩] .

ويصف ابن فضلان شراباً يستخرج من شجر يقّر بأنَّه لا يعرفه يخرج منه شرابٌ يصفه بأطيب من العسل ، إذْ يقول : (ورأيتُ لهم شجراً لا أدري ما هو ، مفرطُ الطُّول وساقه أجردُ من الوَرق ، ورؤُوسه كرؤوس النَّخل له خُوصٌ دِقاقٌ ، إلاَّ أنَّه مجتمع ، يجيئون إلى موضعٍ يعرفونَهُ من ساقِهِ ، فيثقبونَهُ ، ويجعلون تحته إناءً فتجري إليه من ذلك الثقب ماءٌ أطيبُ من العسل ، إنْ أكثرَ الإنسانُ منه أسكرَهُ كما يُسكر الخمرُ)[٤٠] .

ويذكر ابن فضلان أنَّ ملك الصقالبة قد دعا إليهم بهذا الشراب ، بعد المأدبة التي أشرنا إليها سابقاً ، فيصفه قائلاً : (فلمَّا أكلنا دعا بشراب العسل وهم يسمونه ((السجو))* ليومه وليلته فشرب قدحاً)[٤١] .

ويستبعد سامي الدهان أنْ يكون ابن فضلان قد شرب خمراً (السجو) ، فيقول : (ونحن نستبعد أنْ يشرب الشيخ ابن فضلان خمراً)[٤٢] . يأتي ذلك على الرغم من استشهاد الدهان بقول ياقوت الحموي الذي يؤكد فيه أنَّ ابن فضلان قد شرب قدحاً ، فيقول : (فشرب وشربنا قدحاً)[٤٣] .

ونحن نستغرب ـ حقيقةً ـ استبعاد المحقق الدهان لقول الحموي والإبقاء فقط على عبارة (فشرب قدحاً) ، أي الملك هو الذي شرب ، مستثنياً ابن فضلان ، لاسيما وأنَّ ابن فضلان يصف هذا الشراب بأنَّه (أطيبُ من العسل ، إنْ أكثرَ الإنسانُ منه أسكرَهُ كما يُسكر الخمرُ) . وفي هذا ما يؤكد شرب ابن فضلان له بدلالة معرفته بطعمه (أطيب من العسل) . وربَّما كان الفضول هو ما دفع ابن فضلان لِأَنْ يشرب منه لأمر لا يتجاوز حدود المعرفة بالشيء . بمعنى أنَّ شربه قدحاً واحداً جاء ليس بدافع السكر والانتشاء والوقوع بالمحظور ؛ لأنَّه كان الممثل الديني والسياسي للخلافة العباسية الإسلامية ، وبالتالي لا يمكنه أنْ يقع في منطقة المحرمات ، ويتخلَّى عن هويته الثقافية ، وعن ذاته أمام الآخر.

ث- الملبس :

يُولي ابن فضلان اهتماماً بزي الآخر ، وطريقة لبسه عبر وصفه الدقيق لِلِباس الشعوب والأقوام التي قصدها في رحلته . وقد أشار إلى التنوع والاختلاف في الملبس ، من طبقة اجتماعية إلى أُخرى ، ومن مكان إلى آخر وحسب طبيعة كل منطقة جغرافياً ؛ حتى ليستطيع الرَّسام أنْ ينقل منه صوراً لِأَزياء البلاد في ذلك الزمان عن رحَّالة شاهد بعينه وصوَّر بقلمه ، وأسماء الألبسة مهمة جداً لمن يُريد أنْ يدرس الحياة الاجتماعية والبشرية. فبعض اللِّباس لا يتعدى وظيفته النفعية ؛ كونه يستر البدن ويَحمي من قساوة الطقس ، وبعضه يشكل هوية تعريفية ، ومعياراً يعكس التراتب لوضع اجتماعي أو سياسي أو ديني . فيصف ابن فضلان ـ مثلاً ـ طبيعة اللباس في الجرجانية الذي يتناسب مع الظروف المناخية والبرد الشديد في هذه المنطقة وصعوبة العيش فيها لغير سكانها ، فيقول : (ولقد كنتُ أنام في بيت جوف ، بيتٍ ، وفيه قُبَّة لبود تركية وأنا مُدثَّرٌ بالأكسية والفرى ... ولقد رأيتُ الجبابَ بها تكسى البوستينات من جلود الغنم لئلا تتشقَّق وتنكسر ، فلا يُغني ذلك شيئاً)[٤٤] .

ويُفصِّل ابن فضلان أسماء الألبسة التي ارتدوها في بلد الترك حين أمرهم أهل البلد بالتخفّي بالثياب ، إذْ يقول : (وأمرنا من كنَّا نأنس به من أهلِ البلد بالاستظهار في الثياب والاستكثار منها ... فكان كلُّ رجلٍ منَّا عليه قُرْطَقٌ ، وفوقَهُ خِفْتانٌ ، وفوقَهُ بوستين ، وفوقَهُ لبَّادة وبرنس ، لا تبدو منه إلاَّ عيناه ، وسراويل طاق ، وآخر مُبطَّن ، وَرَان ، وخُفٌّ كِيمَخْت ، وفوقَ الخُفِّ خُفٌّ آخر. فكان الواحد منَّا إذا ركب الجملَ لم يَقْدِر أنْ يتحرك لِمَا عليه من الثِّياب)[٤٥] .

ومن الأمثلة التي يتجاوز فيها الزي وظيفته النفعية لدى الآخر ما شاهده ابن فضلان لدى الصقالبة فهم (كلُّهم يلبسونَ القلانس ، فإذا ركبَ الملكُ ركبَ وحدَهُ بغير غُلام ولا أحد يكون معه . فإذا اجتاز في السوق لم يبقَ أحدٌ إلاَّ قامَ وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه فإذا جاوزهم ردُّوا قلانسهم إلى رؤوسِهم)[٤٦] .

والقلانس هنا لا تؤدي وظيفة نفعية طالما أنَّ الغاية منها الخضوع والتعبير عن احترامهم للملك كما سنرى .

وقد لاحظ ابن فضلان أنَّ الروس يختلف زيُّهم عن الأتراك فهم (لا يلبسونَ القراطق ولا الخفاتين ، ولكن يلبس الرجلُ منهم كساءً يشتمل به على أحد شقَّيه ، ويُخرج إحدى يديه منه . ومع كلِّ واحدٍ منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه . وسيوفهم صفائح مُشَطَّبة إفرنجيَّة . ومن حَدِّ ظُفْرِ الواحد منهم إلى عنقِهِ مخضر شجرٍ وصورٍ وغير ذلك)[٤٧] .

كما عُني ابن فضلان بوصف حلي نساء الروس وزينتهنَّ فـ (كل امرأة منهم فعلى ثديها حُقَّة مشدودة إمَّا من حديد ، وإمَّا من فضة ، وإمَّا من نحاس ، وإمَّا من ذهب ، على قدر مال زوجها ومقداره . وفي كلِّ حُقَّة حلقةٌ فيها سكِّين مشدودة على الثَّدي أيضاً. وفي أعناقهنَّ أطواق من ذهب وفضة)[٤٨] وهذا ربَّما يدلل على ولع الروس بالحلي ، فهم يبالغون في شرائِهِ زينة لنسائهم ، ولذا يؤكد ابن فضلان أنَّ (أجلَّ الحليّ عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه ، ويشترونَ الخرزة بدرهم ، وينظمونه عقوداً لنسائِهم)[٤٩] .

ثم يذكر لمحة عابرة عن زي النساء في بلده عن دخوله بلد الترك والمتمثل بالثوب العربي والمقنعة ، فيقول : (ولا يقدر أحدٌ من المسلمين أنْ يجتازَ ببلدهم حتى يجعلَ له منهم صديقاً ينزل عليه ، ويحمل له من بلدِ الإسلام ثوباً ، ولامرأته مقنعة)[٥٠] .

ج- <u>السلطة ورسومها :</u>

قبل الدخول إلى عوالم السلطة وتمظهراتها في الرحلة ينبغي الإشارة إلى أنَّ ابن فضلان هو ابن السلطة البار وموضع ثقة الخليفة المقتدر بالله ورجل بلاطه ، علاوة على معرفته بأمور السلطة وتدابيرها وعلاقتها بالفرد في الحياة الاجتماعية ؛ ولعله من هنا أرسله المقتدر لهذه المهمة . وهذا يعني أنَّ علاقة ابن فضلان بالسلطة هي التي جعلته رئيساً للوفد ، والشخصية المركزية والعنصر الرئيس والفاعل في الرِّحلة ، وبالتالي له الأفضلية على غيره في كشف مواطن القوة والضعف في هذا المجتمع أو ذاك ، وهذا القرب ، أيضاً، هو الذي حفَّزه على تدوين مشاهداته بدقة عالية ليقدمها على هيئة تقرير قُدِّم

لصاحب السلطة حول الأوضاع السياسية والاجتماعية للآخر في الأقاصي البعيدة ، سواء كان مواطناً بسيطاً تحت سلطة الحكام ، أو الملوك أنفسهم الذين يحكمون البلدان والأقاليم ورسومهم في إدارتها ، (إذْ لا يمكن معرفة الدولة وفهم تناقضاتها ومشاريعها وبرامجها ونجاحها وإخفاقها من دون معرفة القوى الاجتماعية التي تحركها في هذه الحقبة أو تلك)[٥١]. ومن هنا نقل ابن فضلان ـ بتفصيلات كثيرة ـ رسوم سلطة الآخر تلك التي يتمتع بها ملوك القبائل والأقاليم معرّجاً على تنظيمها وعلاقة الجماعة بها والرسوم التي تدل على هيبتها والعلاقات الداخلية وما يحكمها من أعراف وقوانين وعقوبات ، فضلاً عن العلاقات الدولية الخارجية .

فمن مظاهر السلطة التي رصدها ابن فضلان ـ مثلاً ـ أنَّ الصقالبة يُظهرون الاحترام لملكهم ، عند تجواله داخل مملكته ، أو عندما يدخلون عليه ، برفع قلانسهم وجعلها تحت آباطهم . كما أنَّ الملك لديه من السلطة إلى حد تتحول العلاقة بينه وبين شعبه إلى علاقة عبودية بحيث أنَّ أي شخص يدخل عليه ، حتى وإنْ كان من أهله وخاصَّته ، يجلس باركاً بين يديه ، إجلالاً وتعظيماً له ، يقول ابن فضلان : (فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحدٌ إلاَّ قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه ، فإذا جاوزهم ردُّوا قلانسَهم إلى رؤُوسِهم . وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغيرٍ وكبيرٍ حتى أولاده وإخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلانسَهم فجعلُوها تحت آباطهم ، ثم أَوْمُوا إليه برؤوسِهم ، وجلسوا ثمَّ قاموا حتى يأمرهم بالجلوس . وكل مَنْ يجلس بين يديه فإنَّما يجلس باركاً)[٥٢] .

وكذلك الحال في مملكة الخزر ، فإنَّ ملكها يحيط نفسه بهالة من الهيبة والقدسية ، فهو (لا يظهر إلاَّ في كلِّ أربعةِ أشهرٍ متنزِّهاً ، ويُقال له خاقان الكبير ... وإذا ركبَ هذا الملكُ الكبير ركبَ سائر الجيوش لركوبه ، ويكون بينه وبين المواكب ميل ، فلا يراه أحدٌ من رعيَّتِهِ إلاَّ خرَّ لوجهِهِ ساجداً له لا يرفع رأسَهُ حتى يجوزه)[٥٣].

ويبدو أنَّ سلطة ملك الخزر قد تعدَّت مملكته إلى الممالك المجاورة ، فارضاً سيطرته عليها ، إذْ ينقل ابن فضلان أنَّ هذا الملك يأخذ بنات الملوك طوعاً أو كرهاً ، كما أنَّ لديه عدد كبير من الجواري الجميلات يمارس عليهنَّ سلطة جسدية ، فيقول : (رسمُ ملك

الخزر أنْ يكون له خمس وعشرون امرأة ، كل امرأة منهنَّ ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه ، يأخذها طوعاً أو كرهاً . وله من الجواري السراري لفراشه ستون ، ما منهنَّ إلاَّ فائقة الجمال . وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد ، لها قُبَّة مغشَّاة بالسَّاج، وحول كل قُبَّة مضرب ، ولكلِّ واحدة منهنَّ خادم يحجبها ، فإذا أراد أنْ يطأ بعضهنَّ بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه . ويقف الخادم على باب قُبَّة الملك ، فإذا وطئها أخذها بيدها وانصرف ، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة)[٥٤] .

كذلك ينقل لنا ابن فضلان سلطة ملك الخزر عبر ما يفرضه من أحكام تعسفيَّة على رعيته للحفاظ على مملكته ، فمن رسومه أنَّه (إذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب . فإنْ انهزمت قُتل كل من ينصرف إليه منها . فأمَّا القُّواد وخليفتُهُ فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءَهم وأولادَهم فوهبهم بحضرتِهم لغيرِهِم وهم ينظرون . وكذلك دوابّهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم ، وربَّما قطعَ كلَّ واحدٍ منهم قطعتين وصلبهم ، وربَّما علَّقهم بأعناقِهِم في الشَّجر ، وربَّما جعلَهم إذا أحسن إليهم ساسة)[٥٥] .

ولكن على الرغم من كلِّ هذه السلطة التي يتمتع بها ملك الخزر فإنَّها سلطة محدَّدة بمدة زمنية ، إذْ يصف ابن فضلان مدة الحكم ، وكيف يتم تداول السلطة التي يشترط أنْ تكون محدَّدة بأربعين عاماً يُقتل بعدها الملك ، فيقول : (ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرَّعية وخاصَّته ، وقالوا : هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه)[٥٦] .

كما يتعرَّض ابن فضلان إلى الحياة السياسية ونظام الحكم والمعاملات ، ويذكر إنعدام السلطة المركزية وازدواجيتها في مملكة الخزر ، وإن السلطة الفعليَّة هي لخليفة الملك الذي يُسمى خاقان به فـ (هو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويُدبِّر أمرَ المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو. وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه)[٥٧] .

ولكن رغم كل ما يتمتع به الخليفة خاقان به من سلطة على رعيته ، يخبرنا ابن فضلان أنَّ سلطته تقف عند سلطة الملك ، فهو (يدخل في كلِّ يوم إلى خاقان الأكبر ـ الملك ـ متواضعاً يظهر الأخبات والسكينة ولا يدخل عليه إلاَّ حافياً)[٥٨] . وهنا تتأكد

سلطة الملك إذْ (إنَّ الأقوى لا يبقى أبداً على جانب كافٍ من القوة ليكون دائماً هو السيد إنْ لم يحوّل قوته إلى حق والطاعة إلى واجب)[٥٩].

ويشير ابن فضلان إلى علاقة السلطة الدولية التي تربط الخزر بجيرانهم الصقالبة ، والضريبة التي يفرضها ملك الصقالبة على رعيته ؛ لدوام تلك العلاقة السياسية ، فيذكر أنَّ (على ملك الصقالبة ضريبةٌ يُؤدّيها إلى ملك الخزر من كلِّ بيتٍ في مملكته جلد سمُّور)[٦٠].

أما رسوم السلطة عند الروس فتكاد تكون متشابهة مع الخزر ، فعلى الرغم من الهيبة والسلطة التي يتمتع بها ملوكهم ، فإنَّ السلطة المركزية تكون بيد الخليفة وليست بيد الملك ، فالخليفة هو الذي يقود الجيوش ويدير أمر الرَّعية . فملك الروس (له خليفةٌ يسوس الجيوش ، ويواقع الأعداءَ ويخلفه في رعيَّتِهِ)[٦١].

ويصف ابن فضلان سلطة ملك الروس على حاشيته وأصحابه ، وتضحيتهم له ، فيقول : (ومن رسم ملك الروس أنْ يكونَ معه في قصرِهِ أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده ، فهم يَموتون بموتِهِ ويُقتلونَ دونه)[٦٢].

ثم يذكر ابن فضلان أنَّ لكل واحدٍ من هؤلاء الصناديد وأهل الثقة (جارية تخدمه وتغسل رأسَهُ ، وتصنع له ما يأكل ويشرب ، وجارية أخرى يطؤُها . وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره ، وسريره عظيم مرصَّع بنفيس الجواهر ، ويجلس معه على السرير أربعونَ جارية لفراشِهِ، وربَّما وطئ الواحدة منهنَّ بحضرة أصحابه)[٦٣].

ويبدو أنَّ ابن فضلان لم يندهش من هذا الأمر لاسيما وهو سليل الخلافة العباسية التي كانت قصورها تضم آلاف الجواري اللواتي أُتخذ بعضنَّ للخدمة ، والبعض الآخر للزواج . وتذكر المصادر التاريخية أنَّ كلاً من قصر هارون الرشيد والمتوكل كانا يضمَّان (ما قُدّر بالأربعة آلاف جارية)[٦٤] وقد كانت للجواري آنذاك سلطة كبيرة ومكانة وحظوة عند أغلب الخلفاء ، فضلاً عن مشاركتهنَّ في الأمور السياسية حتى قيل عن الخليفة المقتدر بالله أنَّه (غلب على أمر النساء والخدم)[٦٥].

وتتجلى سلطة الحاكم الروسي على عبيده ـ ذكوراً وإناثا ـ في استخدامهم حتى في قضاء حاجته الطبيعية فهو (لا ينزل عن سريره ، فإذا أرادَ قضاء حاجة قضاها في طشت . وإذا

أراد الركوبَ قدَّموا دابَّته إلى السرير فركبها منه . وإذا أراد النزول قدَّم دابَّته حتى يكون نزوله عليه)[٦٦].

أما الترك فيذكر ابن فضلان أنَّ أحكام السلطة عندهم تدار بالشورى (وأمرهم شورى بينهم)[٦٧] . إلاَّ أنَّه لا يُقدِّم أمثلة على ممارسة هذه الشورى ، ولكنَّه يذكر أنَّ الشورى لا تتحقق وسط انعدام التنظيم والفوضى ؛ لأنَّ أضعف وأخس الأفراد بينهم يمكنه أنْ يخالفها فهو يقول: أنَّهم (يُسمُّون كبراءَهم أرباباً ، فإذا استشار أحدُهُم رئيسَهُ في شيءٍ قال له : يا ربِّ إيشْ أعمل في كذا وكذا ؟ (وأَمرهم شُورى بينهم) غير أنَّهم متى اتفقوا على شيءٍ وعزموا عليه جاء أَرذلهم وأخسَّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه)[٦٨].

ويسوق ابن فضلان حادثةً يوضح فيها عدم احترام الترك للملك ، وانعدام هيبته وسلطته لدرجة التهكم به ؛ نتيجة انفصام العلاقة بين السلطة والشعب في العلاقات الاجتماعية والسياسية ، ناتج عن الإخفاق في إدارة الدولة ، وذلك عندما أوقف أحد الأتراك القافلة التي فيها ابن فضلان ، وقال لهم : (ليس يجوزُ منكم أحدٌ .. فقلنا له : نحن أصدقاء كُوذركين ـ وهو خليفة ملك الترك ـ فأقبل يضحك ويقول : مَنْ كُوذركين ؟ أنا أَخْرَى على لحية كُوذركين !)[٦٩].

ويُورد ابن فضلان علامة التعجب في نهاية الجملة ليبيّن استغرابه من الإستهانة برمز السلطة الحاكمة

وربَّما كان ضعف السلطة لدى الترك أحد الأسباب لدخولهم إلى الإسلام ، إذْ أنَّ ضعف أنظمة الملك لدى الأتراك جعلهم على أهبة الدخول في الإسلام كخيار وحيد ممكن، على عكس الصقالبة الذين كانت لديهم هيئة حاكمة ممثله بملك ونوَّابه المتعددين ، ويملك عاهلهم هيبةً ومالاً وسلطةً وقوةً ، وربما يدل على ذلك بعض الدلالة وصف ابن فضلان لمراسيم استقباله من قبل ملك الصقالبة التي نتلمس فيها مظاهر الفخامة والسلطة ، فيقول : (فدخلنا إليه وهو في قبَّته ، والملوكُ عن يمينه ، وأمرنا أنْ نجلس عن يساره ، وإذا أولاده جلوسٌ بين يديه ، وهو وحده على سريرٍ مُغشًّى بالديباج الرُّومي)[٧٠].

وصفوة القول : إنَّ مظاهر السلطة المطلقة للسيد على عبده ، وضرورة استعمال الشدة والقسوة في معاملتهم ، تعكس الروح الاستعلائية للآخر ، إذْ نجد أنَّ سلطة السيد على عبده وخضوع هذا الأخير لمالكه يكاد يكون مطلقاً ، فلم يكن بمقدوره الحفاظ حتى على حياته فإذا (مات الرئيس منهم قال أهلُهُ لجواريه وغلمانه : (مَنْ يموت معه ؟)[٧١].

الهوامش :-

١- قضية التراث والانبعاث الحضاري في الوطن العربي ، عبد الله العروي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ١٢، ١٩٧١م : ٢.

٢- رسالة ابن فضلان ، المقدمة : ٣٠ .

٣- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (رسم) .

٤- ينظر رسالة ابن فضلان : الصفحات : ١٣١،٩٣،١٠٣،٨٤،١٣٢، ١٦٥.

٥- ينظر: الرحلة والنسق ، أبو شعيب الساوري : ١٥٣.

٦- رسالة ابن فضلان : ٩٣-٩٤.

٧- سورة النساء ، آية : ٤.

٨- رسالة ابن فضلان : ٩٣-٩٤.

٩- سورة النساء ، آية : ٢٥.

١٠- رسالة ابن فضلان : ٩٤.

* وقد ورد ذكر هذا الزواج والنهي عنه في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ أَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ سورة النساء ، اية : ٢٢

١١- جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية في العصور القديمة ، أحمد سليم : ٢٧٩.

١٢- رسالة ابن فضلان : ١٤٤.

١٣- الرحالة المتأخرون ، الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري ، علي بهداد ، ترجمة : ناصر مصطفى ابو الهيجا : ٥٩ .

١٤- رسالة ابن فضلان : ١٥٤-١٥٥.

١٥- ينظر: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ ، خزعل الماجدي : ٣٦.

١٦- رسالة ابن فضلان :.١٦٤

١٧- نفسه : ١٥٥ .

١٨- المكان نفسه .

١٩- نفسه : ١٥٥-١٥٦.

٢٠- نفسه : ١٥٦،١٥٧،١٥٨.

٢١- نفسه : ١٥٨-١٥٩

٢٢- ينظر: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ : ٣٩.

٢٣- رسالة ابن فضلان : ١٥٩-١٦٢-١٦٣ . التراس ـ في الأصل ـ جمع ترس ، وهو صفصة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه .

٢٤- الأنثربولوجيا ودراسة التراث الشعبي ، دراسة ميدانية ، فاروق أحمد مصطفى : ٧٨.

٢٥- رسالة ابن فضلان : ٩٩.

٢٦- نفسه : ٩٩-١٠٠.

٢٧- نفسه : ١٧٠-١٧١.

٢٨- ينظر: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ : ٨١ .

٢٩- فتح أمريكا مسألة الآخر، تزفيان تودوروف ، ترجمة بشير السباعي : ١٩٨.

٣٠- رسالة ابن فضلان : ١٤٣.

٣١- نفسه : ١٤٣-١٤٤.

٣٢- نفسه : ٨٤.

٣٣- نفسه : ١١٦.

٣٤- نفسه : ١٢٩.

٣٥- نفسه : ١٢٨ .

٣٦-المكان نفسه .

٣٧- نفسه : ١٣٠.

* الشيرج : دهن السمسم .

٣٨- رسالة ابن فضلان : ١٣٠.

٣٩- المكان نفسه .

٤٠- نفسه : ١٢٩.

* السجو أو سوجو وسوجي : لم نجد له ذكراً في معاجمنا ، وقد حام حول تفسيره المستشرقون فرأوا أنَّه الخمر، هامش الدهان : ١١٦.

٤١- رسالة ابن فضلان : ١١٦-١١٧.

٤٢- نفسه (الهامش / ٦) : ١١٦.

٤٣-المكان نفسه .

٤٤- ا نفسه : ٨٥. بوستين وهي من الجلد الغليظ ، كالعباءة أو المعطف الكبير.

٤٥- نفسه : ٨٦-٨٧. قرطق (بالضم فالفتح ثم فتح الطاء) معرَّب كرته : وهو قميص أو معطف قصير يصل إلى منتصف الجسم . ينظر: المعجم المفصل لأسماء الملابس عند العرب ، تأليف : دوزي : ٣٦٢، ١٨٤٥ نقلاً عن سامي الدهان : صفحة ٨٦ ، وصفحة ٢٠٣. تحت عنوان (المصادر الغربية والمجلات الاجنبية بعناوين ترجمناها الى العربية .

خفتان : استعمله القدماء بما نسميه اليوم القفطان (أي الجاكيت) ، وهو صدرية تحت الثياب ، وقد حل محل الملابس العربية ، ينظر المصدر نفسه ٨٧. ران : نوع من الأحذية ، جمعه رانات . نفسه ٨٧. كميخت (بكسر الكاف وسكون الياء وضم الميم) ، فارسي نوع من الجلد . نفسه : ٨٧.

٤٦- رسالة ابن فضلان : ١٣١.

٤٧- نفسه : ١٤٩-١٥٠. أنظر: تعليقات المحقق سامي الدهان : ٨٦-٨٧. وقوله : (ومن حَدِّ ظُفْرِ الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجروصورٍ) ، يعني أنَّ أجسامهم طُبعت عليها الصور من أخمص القدم إلى الرأس مثل اللوحة .

٤٨- نفسه : ١٥٠.

٤٩-نفسه : ١٥٠-١٥١.

٥٠- نفسه : ٩٤. يذكر الدهان أنَّ المقنعة غطاء يحمله الرجل والمرأة على رأسهما ، ولعلها برقع على وجه النساء كما في معجم الملابس لدوزي : ٣٧٧. وفي ابن بطوطة ، طبعة باريس : ٣٨٨/٢ حديثه عن البلغار في الفولغا ، وقوله (وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزكشة الحواشي بالذهب والحرير) .

٥١-المحنة العربية ، برهان غليون : ١٠.

٥٢- رسالة ابن فضلان : ١٣١.

٥٣- نفسه : ١٧١، ١٦٩.

٥٤- نفسه : ١٧١.

٥٥- نفسه : ١٧٢ .

٥٦- المكان نفسه .

٥٧- نفسه : ١٦٩.

٥٨- المكان نفسه .

٥٩- في العقد الاجتماعي ، جان جاك روسو ، ترجمة ذوقان قرقوط : ٣٩.

٦٠- رسالة ابن فضلان : ١٤٥.

٦١- نفسه : ١٦٦ .

٦٢- نفسه : ١٦٥.

٦٣- المكان نفسه .

٦٤- أنظر: مروج الذهب ومعادن الجواهر ، المسعودي : ١٣٥/٤ ، البداية والنهاية ، ابن كثير: ٢٢٠/١٠.

٦٥- الكامل في التاريخ ، ابن الأثير: ٢٤٣/٨.

٦٦- رسالة ابن فضلان : ١٦٦.

٦٧- نفسه : ٩١.

٦٨- المكان نفسه .

٦٩- نفسه : ٩٨ .

٧٠- نفسه : ١١٥.

٧١- نفسه : ١٥٦.

مصادر البحث ومراجعه :

- القرآن الكريم .
- أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ ، خزعل الماجدي ، دار الشروق ، عمان الاردن ، ١٩٩٧م .
- الأنثربولوجيا ودراسة التراث الشعبي ، دراسة ميدانية ، فاروق أحمد مصطفى ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٨م .
- البداية والنهاية ، ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م .
- التخييل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة دلالية ، د سعيد جبار ، دار رؤيا ، مصر ، ٢٠١٣م .

- جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية في العصور القديمة ، أحمد سليم ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية. ٢٠٠٥م .
- الرحالة المتأخرون ، الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري ، علي بهداد ، ترجمة : ناصر مصطفى ابو الهيجا ، هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة ، ٢٠١٣م .
- الرحلة والنسق ، أبو شعيب الساوري ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٧م.
- رسالة ابن فضلان ، أحمد بن فضلان ، تحقيق : د. سامي الدهان ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٦٠ .
- فتح أمريكا مسألة الآخر ، تزفيان تودوروف ، ترجمة بشير السباعي ، سينا للنشر ، ١٩٩٢م .
- في العقد الاجتماعي ، جان جاك روسو ، ترجمة ذوقان قرقوط ، دار القلم ، بيروت ، د.ت .
- قضية التراث والانبعاث الحضاري في الوطن العربي ، عبد الله العروي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ١٢ ، ١٩٧١م .
- الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٠م.
- المحنة العربية ، برهان غليون ، مركز دراسات الوحدة العربية ، لبنان ، بيروت ، ١٩٩٤م .
- مروج الذهب ، المسعودي ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٩م .

المعجم المفصل لأسماء الملابس عند العرب ، دوزي ، امستردام ، د.ت .